جماعة الزهد الصامت ودورها السياسي والديني في بيزنطة في القرن الرابع عشر الميلادي

د. محمد عثمان عبد الجليل

كلية الآداب - جامعة بورسعيد

جمهورية مصر العربية

تعرضت الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الرابع عشر الميلادي لعدة أزمات هددت كيانها السياسي، ودفعت بها دفعاً إلى حافة الهاوية والانهيار. فإلي جانب ما كانت تعانيه الإمبراطورية من الأخطار الخارجية، تعرضت أيضا لهزات شديدة في الداخل تمثلت في حربين أهليتين كان لهما تأثيرا شديدا على مستقبل الإمبراطورية. وقد اشتعلت الحرب الأولى في عشرينيات القرن الرابع عشر بين الإمبراطور اندرونيقوس الثاني Andronicus II (١٢٨٢ ــ ١٢٨٣م) وحفيده اندرونيقوس الثالث Andronicus III (١٣٢٨ ــ ١٣٤١م)، والتي انتهت بانفراد اندرونيقوس الثالث بسدة الحكم بعد سبع سنوات من الصراع المرير. أما الحرب الثانية فنشبت خلال الأربعينيات من نفس القرن عقب وفاة الإمبراطور اندرونيقوس الثالث في يونيو ١٣٤١م، بسبب الصراع علي وصاية العرش بعدما ترك وريثا لم يبلغ السن المناسب للولاية بعد، حيث لم يتعد السنة التاسعة من عمره [١].

ورغم ما كان يهدد الإمبراطورية من أخطار، فقد ازدهر النشاط الثقافي فيها وارتفعت حرارة الجدل الديني، حيث ظلت بيزنطة على عهدها دائما تشهد جدلا دينيا عقائديا بين مختلف الفرق الكنسية، والتي غالبا ما كانت تتآلف مع مثيري الفتن السياسية. وقد زادت حدة هذا الأمر مع الإحساس الحقيقي الواضح بسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية. وقد برز خلال هذه الفترة على مسرح الأحداث دور جماعة دينية عرفت باسم جماعة

---

[١] اندلعت الحرب الأهلية الأولي نتيجة اختصام الامبراطور الجد مع حفيده ووراثة اندرونيقوس الثالث، الذي لم حرج في رفع السلاح في وجه جده. واندلعت الحرب الثالثة عشية وفاته عام ١٣٤١م نتيجة التناحر علي وصاية العرش، والشئ الملاحظ أن يوحنا كانتاكوزينوس يعد العامل المشترك في الحربين، ولمزيد من المعلومات، انظر:

Georgios Pachymeres, *Historia*, trans. by Cassidy, N. J., Ph. D. Dissertation, University of Western Australia, 2002, 335 -336; Doukas, *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*, trans. by Magoullas, H. J.,Michigan,1975, 59-60; Cf. Ostorogrsky, G., *A History of Byzantine State*, Eng. trans. J. M. Hussey, Oxford 1968, 454-455 .

"الزهد الصامت" Hesychast كإحدى الفرق الدينية التي لعبت دوراً هاماً في الأوضاع الدينية في الإمبراطورية سرعان ما اكتسب الصبغة السياسية، والتي كان له دورا مؤثرا فيما بعد على الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية في بيزنطة خلال القرن الرابع عشر الميلادي.

وتهتم هذه الدراسة بإلقاء الضوء علي جماعة الزهد الصامت ونشأتها ودورها الديني والسياسي والاجتماعي في الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الرابع عشر الميلادي. وعلي الرغم من أهمية ذلك الدور وما له من أثر على الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية، فإنه لم يحظ بأية دراسة عربية شاملة. وبالنسبة للدراسات الأجنبية فقد تم التعرض للموضوع ضمن فقرات مقتضبة داخل دراسات تتعلق بالجوانب الجدلية اللاهوتية، أو إشارات بسيطة بين طيات الحديث حول الحرب الأهلية الثانية (١٣٤١ ـــ١٣٤٧م).

وجماعة الزهد الصامت أو "الهدوئيون" كما يطلق عليهم البعض، هي حركة روحية في الكنيسة الشرقية تعود نشأتها تاريخيا إلى القرون الأولى للمسيحية، حيث انتشرت بشكل خاص في الأديرة الرهبانية المنتشرة في صحراء مصر والشام. وهي مستمدة من الكلمة اليونانية *Hesychia*، والتي تعني الصمت والسكينة للوصول إلى الهدوء الروحي، ومنها جاءت الهدوئية Hesychism، وفي تعريف آخر هم أولئك الذين يعملون في صمت، وهدفهم الجوهري هو الاتحاد التام مع الله [٢].

ومما يذكر أن بيزنطة شهدت خلال القرن الحادي عشر شكلا جديدا من أشكال الجدل الديني. فبعد أن كان الجدل الديني يدور سابقا حول طبيعة السيد المسيح (عليه السلام)، أخذت الخلافات اللاهوتية بعد ذلك تدور بالأكثر حول لاهوت المذهب الباطني Mysticism وطقوسه. ورغم قدم مذهب التصوف (إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح) في بيزنطة، فإن الجميع –حسب قول المؤرخ رانسيمان S. Runciman – كان يقف حائرا إزاء التفسير اللاهوتي لما يسمى بالنشوة الوجدانية لدى الزاهد، والضوء غير المخلوق الذي يترآى لهم[٣].

---

[٢] تعرف أيضا، أنها تلك الحركة الروحية التي تعود لأصول رهبانية والتي تبحث عن الوجود المحسوس لله والتقديس من خلال الصلاة الداخلية" القلبية"، ولمزيد من المعلومات انظر:

Gregory Palamas, *The Triads*, edit by Meyendroff, J., trans by, Gendle, N., New Jersey 2; Cf. *Oxford Dictionary of Byzantium*, Oxford,1991,Vol. II, 923-924.

راجع أيضا: يوحنا السلمي، السلم إلى الله، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٤٢– ٢٤٣.

[٣] ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة، عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٩٤.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ظهور جريجوري الســيناوي Gregory of Sinai (ت ١٣٤٠م) في بيزنطة خلال ثلاثينيات القرن الرابع عشر كان له تأثيرا هاما في الحياة النسكية في بيزنطة وجماعة الزهد الصامت بصفة خاصة، حيث استقبلت الأديرة البيزنطية وبخاصة رهبان جبل أثوس Mt. Athos تعاليمه ونسكه بحماس شديد[٤]. ورغم صغر تلك الجماعــة التي اتبعته في البداية، وكان من بينهم جريجوري بالاماس Gregory Palamas[٥]، والذي أصبح فيما بعد الزعيم والمدافع عن تعاليم ومنهج تلك الجماعة، إلا أنها كانــت ذات تــأثير شديد، فسرعان ما زاد عددهم وانتشروا في أرجاء الإمبراطورية. وبفضــل تعــاليم هــؤلاء الرهبان أصبحت الهدوئية طريقة حياة نسكية روحية فلسفية ولاهوتية طبعت الفكر المسيحي في توقة لمعرفة الله والاتحاد به[٦].

ويؤمن أصحاب مذهب "الهدوئية" بأنه متى اعتزل الإنسان العالم واســتغرق فــي النشوة الكاملة للروح فإن الله يكشف له ذاته، إذ ذاك تنشق الظلمة ولا يبقى غيــر نــور الله يدعوهم إليه، ويقولون أن هذا النور هو الله نفســه. وكان ذلك يتم من خلال صــلاة عرفت

---

[٤] يعد جريجوري السينائي من المبشرين الاوائل ذوي الاتجاه الصوفي، وو صل إلى جبل اثوس بعد رحلة طويلة تنقل فيها بين جبل سيناء وبيت المقدس وكريت. وترك اثر هام في الحيلة النسكية في كل من بيزنطة وأوربا الشرقية، ولمزيد من المعلومات انظر:

Gregory Palamas, *The Triads*, 14; Cf. Meyendorff, J., *St. Gregory Palamas and Orthodox Spirituality*, St Vladimir; New York, 1974, 127; Fanning, S., *Mystics of the Christian Tradition*, Routledge, 2005, 52.

[٥] ولد القدّيس جريجوري بالاماس في مدينة القسطنطينية في العام ١٢٩٦ للميلاد. كان من عائلة من النبلاء. كان مقرّباً من الأمبراطور البيزنطي اندرونيوس الثالث. وارتحل جريجوري وأخواه، مكاريوس، و ثيودوثيوس، إلى الجبل المقدّس (آثوس) عام ١٣١٦ م. وقد رسم كاهناً وهو في سن الثلاثين (١٣٢٦م). ثم انتقل إلى منطقة فاريا الواقعة على الحدود بين مقدونيا وتراقيا واستقر في إحدى مغارتها الجبلية نظير النساك القدامى. ولعل آخر وأهم حدث في السنوات الأخيرة من حياة القدّيس جريجوري كان وقوعه في الأسر في يد الاتراك بينما كان ينتقل بطريق البحر من سالونيك إلى القسطنطينية حيث بقي أسيراً ما يقرب من سنة (١٣٥٣ – ١٣٥٤م). ولمزيد من المعلومات عن بالاماس، انظر:

Gregory Palamas, *The Triads*, 5-6; Cf. Arnakis, G., "Gregory Palamas among the Turks and Documents of his Captivity as Historical Sources," *Speculum*, Vol. 26, No. 7, Jan.1951, 104-118, 104.

[٦] تأثر بالاماس بفكر وكتابات العديد من القديسين، فهو يعتبر نفسه تلميذا لآباء الكنيسة الذين تتابعوا بداية من القرن الرابع، والتي كان هؤلاء يشكلون نواة افكارها عقائديا وفلسفيا في مواجهة كل من ناصبها العداء، ولمزيد من المعلومات انظر:

Runciman, S., *The Last Byzantine Renaissance*, Cambridge, 1970, 29-30; Tumer, H. J., *St. Symeon: The New Theologian and Spiritual Fatherhood*, Leiden, 1990, 60.

باسم "صـــلاة يســـوع" Jesus pray، وهي صلاة فردية مركبـــة مـــن جملـــة قصـــيرة[٧]. وتدريجيا وحسب وصف هؤلاء فإن المبتهل المواظب على تلك الصـــلاة يشـــعر بنشـــوة لا توصف ويري نفسه محاطا بإشعاعات خارقة للطبيعة Divine Light، وهو نفس الضـــوء غير المخلوق الذي ظهر لحواري السيد المسيح عيسي بن مريم علـــي جبـــل ثـــابور Mt. Thabor. وكانت تلك الممارسات العقائدية محل انتقاد شديد في الغرب الاوربي، إذ انبـــرى الراهب بارلام الكالابري Barlaam of Calbaria [٨] متهما رهبان جبل اثـــوس بـــالكفر، رافضا ادعائهم بإمكانية معرفة الله ومعاينة النور غير المخلوق عن طريق صلاة الذهن فـــي القلب. كما أشار أيضا إلى أن التعرف علي الله إنما يتم من خلال الحكمة والتي تأتي للإنسان من خلال التعلم والمعرفة الفلسفية العقلية[٩].

على الجانب الآخر رفض الزهاد الصامتون هذا الهجوم، واعتبروه هجوماً على الأرثوذكسية، الهدف منه تحولها عن مســـارها وتغير ملامحها والإلقاء بها في خضم التيارات الفكرية التي بدأت تعبث بالغرب آنذاك، والتي تمثلت في بعث الفكر الفلسفي الإغريقي والوثنيات القديمة، وهو بذلك قد تحدى تراثا رهبانيا يعود بجذوره إلى العصور الأولي ويفرغ الحياة الرهبانية. ولذلك رد عليه بالاماس مستشهداً في ذلك بالآباء بأن الحكمة

---

[٧] تتمحور هذه الصلاة حول المسيح، وغالبا ما تستعمل المسبحة في اداءها، يتدرب عليها المبئون لكي تكون رفيقة دربهم ولتضفي علي فكرهم ونظرتهم عطر المسيح وحلاوة حضوره. ورغم صعوبة تلاوتها في البداية، بمرور الوقت تتحول إلى فعل داخلي، بحيث ان الذهن يرددها دون الاحتكام إلى اللسان، ولمزيد عن تلك الصلاة وتطور اداءها، انظر:

Lv Gillet Kallisos, *The Jesus Prayer*, editor Kallistos, St Vladimir; Seminary Press,New York,1987, 49, 53-54; Frederica Mathewes – Green, *The Ancient Desert Prayer that Tunes the Heart to God*, U S A, 2009, 118.

[٨] ولد بارلام في حوالي عام ١٢٩٠م لأسرة أرثوذكسية في جنوب ايطاليا، وقد انخرط في سلك الرهبنة في سن الشباب. وقد رحل للقسطنطينية عام ١٣٣٠م. ولقي حفاوة بالغة من الامبراطور اندرونيقوس الثالث ومساعده الأول يوحنا كانتاكوزينوس. وبلغت الثقة به أن اناب عن الامبراطور في مباحثات حول الاتحاد الكنسي مع البابوية في افنيون عام ١٣٣٩م. وكان جله مع القديس جريجوري بالاماس سبباً في رحيله عن القسطنطينية والعودة لموطنه، حيث رسم كاهنا، وظل علي ذلك حتي وفاته في افينون عام في يونيو ١٣٤٨م، وللمزيد من المعلومات، انظر:

The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991, Vol. I, 257.

[٩] Gregory Palamas, *The Triads*, 25-26; Saint Gregory Palamas, *Dialogue between an Orthodox and a Barlaamite*, trans. by Rein Ferwerda, New York, 1999, 35-36 Cf. Clucas, L., *The Hesychast Controversy in Byzantium in The Fourteenth Century*, Ph. D. Dissertation, University of California, Los Angeles,1973, 15; Siecienski, A. E., *The Filioque History of A Doctrinal Controversy*, Oxford, 2010, 145.

الطبيعية (العلوم) أمر جيّد بشرط استخدامها بطريقة جيدة، إذ يمكن أن تكون مضرّة وهدامة للنفس أو مفيدة للإنسان وحياته البشرية، والفائدة الروحية لها هي استنتاج وجود الله وعنايته بالخليقة. ولكن يضع شروطاً لممارستها، وهي أن لا يغرق فيها الإنسان طيلة سني حياته حتى الشيخوخة بدون فائدة، وأن يتركها الرهبان ما أن يدخلوا السيرة الرهبانية، وألا يُعتمد عليها بشكل كامل لفهم وشرح الأسفار الموحى بها من الرب. فالحكمة الإلهية ناتجة عن موهبة روحية من الله وليس من التمرّن والممارسة الفكرية[١٠].

كيفما كان الأمر، فقد زاد الوضع اشتعالا عشية قدوم بارلام إلى القسطنطينية عام ١٣٣٠م، والتي مكث بها عدة سنوات، وبدأ حملة قوية أحدثت شرخا في اللاهوت الأرثوذكسي لمدة عشرين عاماً؛ حيث وجه بارلام انتقادا شديد السخرية للصلاة التي كان يعتبرها الهدوئيون عبادة روحية دأبوا عليها غير مهتمين بشئ آخر. وقال بارلام في نقده أن النعمة الروحية التي تملأ القلب عند الصلاة الهدوئية ليست سوي تخيل. وكانت هذه الآراء سببا في ارتفاع حرارة الجدل الديني، خاص أن تلك العقيدة بدأت تأخذ في التغلغل بشكل ملحوظ وسط العامة من سكان الإمبراطورية الذين شكلوا أداة ضغط ودعما قويا لجماعة الزهاد الصامتون في وجه من أرادوا النيل من التقاليد الأرثوذكسية العتيقة. وقد دفع هذا الهجوم جريجوري بالاماس لأن يقوم بالدفاع عن عقيدته وممارسات جماعته من خلال ثلاثيته الشهيرة للدفاع عن رهبان جبل أثوس وطقوسهم النسكية[١١].

وقد أسفر هذا الجدل إلى انقسام المجتمع البيزنطي إلى قسمين، أحدهما مؤيد والآخر معارض لآراء تلك الجماعة. وقد طال تأثير هذا الانقسام جميع الأطياف سواء بالقصر الإمبراطوري أو الكنيسة وحتي الجيش والمفكرين والرهبان بالإضافة إلى العامة. وأصبح من الواضح أن الخلاف القائم بين بالاماس وبارلام أكبر من التوفيق بينه بالطرق العادية، وأنه يتطلب حكما صادرا عن مجمع كنسي يضم كبار رجال الدين للبت في هذا الأمر.

---

١٠ Saint Gregory Palamas, *Dialogue* , 36- 40;Gregory Palamas, *The Triads*, 26- 30; Cf. Hill, J., *The History of Christian Thought*, Lion Books, U K, 2003, 111- 113; Louth, A., *St. Gregory Palamas and The Holy Mountain, in: Mount Athos, The Sacred Bridge : The Spirituality of the Holy Mountain*, ed. by Dimitri E. Conomos, Graham Speak, Peter Lang, London, 2005, 49-67, 52; Niclaidis, E., *Science and Eastern Orthodoxy, from the Greek Fathers to the Age of Globalization*, trans. by Emanuel, S., U.S.A, 2011, 90.

١١ Nikephoros Gregoras, *Rhomaische Geschichte (Kapitel xviii – xxiv, 2)*, German trans. Dieten, L. V., Stuttgart,1994, 83-84; Cf. Louth, *St. Gregory Palamas*, 52; Ostorogrsky, *Op. Cit.*, 456-457.

وتمت الاستجابة لهذا الأمر من خلال المجمع الكنسي المحلي الـذي عقـد فـي القسطنطينية في العاشر من يونيو عام ١٣٤١م، وقد ترأسه الإمبراطور اندرونيقوس الثالث، وحضره البطريرك يوحنا الرابع عشر كاليكاس John XIV Kalekas(١٣٣٤-١٣٤٧م)، إلى جانب عدد من الأساقفة والرهبان، وأعضاء من مجلس السناتو وباقة من المثقفين. وتـم خلال ذلك استعراض سؤالين هامين، الأول: هل كان نور التجلي علي جبل ثابور مخلوقا أم لا؟، أما السؤال الثاني: هل يشوب صلاة الهدوئيين وهي ثنائية إلهية تتمثل الأولي في جوهر الله والثانية في قواه؟ وبعد مناقشات حامية دارت بين بارلام وبالاماس، أقر المجمع في النهاية طروحات بالاماس، وأدان تعاليم الراهب بارلام، معتبرا إياها هرطقة، وألزمه بتقديم اعتـذار عما بدر منه تجاه جماعة الزهد الصامت. وأمام الاتهامات التي وجهت بتشويه الأرثوذكسية لصالح الغرب والهرطقة اضطر إلى مغادرة القسطنطينية عائدا إلى موطنه في إيطاليا مـرة أخرى(١٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن قرارات المجمع السابق ومغادرة بارلام لم تكن كافية لتهدئة الأمور ورأب الصدع الذي أصاب المجتمع البيزنطي. حيث استمرت حالة الهجوم علي جماعة الزهد الصامت، وإن كانت هذه المرة من داخل القسطنطينية وليس من خارجها. حيث قادها أحد المثقفين المـوالين للتيـار الغربـي ويـدعي الكسـيوس اكنـدينوس Alexius Akindynos. ودعى ذلك إلى عقد مجمعاً آخر، وإن كان البعض يعتبره امتـدادا للمجلـس السابق، وكان في أغسطس من نفس العام؛ وقد شهد حضورا كثيفا مما جعل أحد الحضـور يدعى فيلوثيوس Philotheos أن يصف الوضع بقول" بأن شوارع القسطنطينية خلت مـن المارة لتواجدهم لمتابعة هذا المجمع"(١٣).

وفي البداية حاول البطريرك كاليكاس تصدر المشهد، وأخذ في عرض المسـائل الخاصة بالمجمع، غير أن يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus(١٣٤٧-١٣٥٤م)، تدخل ونحى البطريرك جانبا ساخرا من إقدامه لترأس الجلسة في وجوده وقام هـو يتـرأس

---

١٢ رغم معارضة نيقفورس جريجوراس في البداية لمرجعية بارلام الغربية، إلا أنه في نفس الوقت اعترض علي الاتهمات التي وجهت لبارلام لكونه يعبر عن رؤية رأي غربية. وعلق علي ذلك قائلاً " هل الرائحة الكريهة التي تنبعث من أصحاب بعض المهن تعد سببا لانقراض هذه المهن". ولمزيد من المعلومات انظر:
Nikephoros Gregoras, *Rhomaische Geschichte*, 91-96; Cf. Mc Grath, E., *Christian History: An Introduction*, john Wiley & Sons,U K, 2012, 116; Meyendorff, *St. Gregory Palamas*, 115; Clucas, *The Hesychast Controversy*, 120- 125.

١٣ Philotheos (patriarch) Encomium, *Patrologia Graeca*, ed. J. P. Migne, Tome 151, Paris,1865, Cols. 551 – 656.

الجلسة، نظرا لوفاة الإمبراطور اندرونيقوس الثالث في منتصف شهر يونيو ١٣٤١م. وقد حامت الشبهات حول قرارات هذا المجمع التي جاءت في مضمونها مطابقة لنفس قرارت المجمع السابق، بإدانة معارضي الهدوئية. وهذا ما جعل البعض يتهم يوحنا كانتاكوزينوس للنظر للقضية من منظور سياسي وليس من منظور ديني، طمعا في كسب دعم جماعة الزهد الصامت الذي وضح مدى تأثيرها علي الرأي العام، وذلك أملا في الاستئثار بالوصاية علي الطفل الوريث، وهو ما أدى إلى خلط الأمور السياسية بالأمور الدينية، وافساح الطريق لتلك الجماعة للانخراط في مجال السياسية. وهو ما يؤدي إلى اتساع هوة الشقاق الديني والاجتماعي داخل المجتمع البيزنطي(١٤).

فالصراع الخفي علي الوصاية بين كونتاكوزينوس من ناحية وبين الأم آنا سافوي Anna of Savoy والبطريرك يوحنا كاليكاس من ناحية أخرى جعلته يحابي جماعة الزهد الصامت أصحاب الشعبية والتأثير على الرأي العام بعامل الدين على حساب المثقفين الموالين للتيار الغربي، ليقلل من فرص الإمبراطورة الأم آنا سافوي من الانفراد بالوصاية علي العرش. ومن ثم أخذت الأطراف الطامحة في الوصاية على العرش في تدبير المكائد ضد بعضها من أجل الانفراد بالوصاية. فإلى جانب يوحنا كانتاكوزينوس، والإمبراطورة الأم كان هناك أيضا البطريرك يوحنا كاليكاس الذي خلع رداء الدين وارتدى رداء الدنيا من أجل المشاركة في الوصاية وتدعيم مكانته كبطريرك، خاصة بعد أن وشى إليه المنافس الرابع أبوكاوكس Apokaukas بأن بالاماس يساعد كانتاكوزينوس، وذلك من أجل تنصيبه بطريركا بدلا منه في حالة تمكنه من حق الوصاية(١٥).

---

١٤ Kantakouzenos (Cantacuzenus), J., *Histoirae*, 3 vols., *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae,* (Bonn 1828- 1832), Vol. II, 22; Cf. Meyendorff, J., "Les debuts de la controverse hesychaste," *Byz.* XXIII (1953), 87-120, 92- 95.

١٥ في الوقت الذي كان يظن فيه كانتاكوزينوس أن الجميع سوف ينادي به واصيا علي العرش بحكم قربه من الإمبراطور اندرونيقوس الثالث، كانت الامبراطورة آنا سافوي تتخوف منه، مخافة أن يمارس هوايته في السيطرة والنفوذ مثلما كان مع الأب، لذلك وضعت ثقتها في البطريرك. وقد دعت تلك الظروف كانتاكوزينوس في التفكير بعض الوقت للانسحاب والانخراط في الحياة الديرية، ولكن على ما يبدو أن هناك من شجعه للتراجع عن تلك الفكرة والمواجهة مع خصومه، وطبيعي أن يكون الزهاد أحد هؤلاء. كما أن هذا يوحي أيضا لرسوخ نزعة التصوف والزهد داخل كانتاكوزينوس، ولمزيد من المعلومات انظر:

Kantakouzenos, Vol. I, 396; Cf. Nicol, D., *The Last Centuries of Byzantium (261-1453)*, Cambridge, 1993, 187- 189; Origne S., *Giovanna di Savia alas Anna Paleologine: latina a Bisanzio (c.1306- c1365)*, Editoriale Jaca Book, Rome, 1999, 103-105.

في خضم تلك الأجواء المضطربة استغلت آنا سافوي خروج كانتاكوزينوس في مهمة عسكرية خارج القسطنطينية في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٣٤١م، وأعلنت الوصاية على الابن بالاشتراك مع البطريرك كاليكاس. كما قامت بتعين أبوكاوكس الذي تخلى عن كانتاكوزينوس واليا علي القسطنطينية. وكانت تلك الإجراءات بمثابة الشرارة الأولى التي أدت إلى إشتعال الحرب الأهلية الثانية التي استمرت لست سنوات. وفي نفس الوقت قام أبوكاوكس بتحريض العامة داخل العاصمة على أفراد الطبقة الارستقراطية السند والداعم القوي ليوحنا كانتاكوزينوس داخل القسطنطينة، وشجعهم علي حرق وسلب ونهب مساكنهم(١٦).

وقد أبدت جماعة الزهد الصامت اعتراضها الشديد على هذا التصرف، لما له من تداعيات على المجتمع الذي يعاني أصلا من الانقسام، وأعلنوا تأييدهم ليوحنا كانتاكوزينوس كوصي على العرش، كما عملوا أيضا على تعبئة الرأي العام لتأييد هذا المطلب، وبذلك يكون أفراد الجماعة قد انخرطوا في العمل السياسي، كما ساهم في شق فئات المجتمع بين مؤيد ومعارض لتلك الأحداث السياسية. وكان لهذا التصرف صدى سئ لدى الإمبراطورة آنا سافوي، مما جعلها ترد عليهم في الحال. اذ أعلنت من جانبها أن هذه الجماعة هرطوقية وغير مرغوب فيها، وتخطت التصريحات إلى اتخاذ إجراءات عملية، حيث قامت بإلقاء القبض علي زعيمهم جريجوري بالاماس وإيداعه بالسجن عام ١٣٤٣ م ، وكانت تهدف من وراء ذلك قطع أي اتصال بين بالاماس وبين كانتاكوزينوس. ثم عقد كاليكاس مجمعا محليا في العام التالي أصدر خلاله قرار بالحرمان ضد بالاماس دون النظر لعواقب مثل هذا التصرف(١٧).

والسؤال الذي يطرح نفسه الأن؟ ما هي الأسباب التي دعت إلى التقارب والتحالف بين جماعة الزهد الصامت ويوحنا كانتاكوزينوس، رغم الاختلاف الأيديولوجي بينهما؟ فالخطاب الديني للجماعة يدعوا للزهد والتقشف والبعد عن ملذات الدنيا، على عكس طبيعة الطبقة الارستقراطية التي يمثلها يوحنا كانتاكوزينوس، والتي تقوم على جمع الثروات على حساب الطبقات الدنيا والهيمنة السياسية. والباحث يرى أن أسباب التقارب تكمن في سعي كل طرف في تحقيق هدفه، فالجماعة كانت تستمد القوة في نشر فكرها من خلال الحزب

---

١٦ Kantakouzenos, *Histoirae*, Vol, II, 553; Cf. Origone, *Giovanna di Savia*, 106-1o7.

١٧ Kantkouzenos, *Histoirae*, Vol. II, 554-555; Cf. Meyendorff, *St. Gregory Palamas*, 97; Nicol, *Last Centuries,* 213.

الارستقراطي بقيادة يوحنا كانتاكوزينوس، والمناوئ للجبهة المنافسة التي تميل للغرب الأوروبي ولفكرة الاتحاد الكنسي، خاصة بعدما توالت الاحتجاجات من مناهضي الهدوئية، وميل البطريرك للتخلص من تأثير تلك الجماعة؛ والارستقراطيين يحتاجون للدعم المعنوي من الزهاد لكسب قاعدة شعبية لمواجهة الفتن التي يشعلها الكسيوس أبوكاوكس ضدهم بين طبقات الشعب الدنيا والمتوسطة، إلى جانب أن كانتاكوزينوس كانت تسيطر عليه النزعة الإيمانية– إذا جاز لنا استخدام المصطلح، وهو ما وضح في تأييده للجماعة في المجامع وحبه للحياة الديرية.

علي الجانب الآخر شق يوحنا كانتاكوزينوس عصا الطاعة، فلم يكن يتخيل هذا التصرف، حيث كان يراوده الأمل دائما أن يصير هو ذاته وصيا على ذلك الصبي، ولكنه وجد الخذلان فيما كان يرجوه علي يد الإمبراطورة الأرملة والبطريرك يوحنا كاليكاس. فأعلن نفسه إمبراطورا في السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٣٤١م، واتخذ من شمال تراقيا Thrace مركزا لقيادته، وأعلن الانضمام إليه العديد من الأتباع من كبار الملاك والإقطاعيين من تلك المنطقة، إلى جانب من رفض الانصياع لمنافسيه في القسطنطينية ومنهم بالطبع أتباع جريجوري بالاماس من جماعة الزهد الصامت. ورغم الضغوط التي مارسها أتباع كانتاكوزينوس عليه من أجل تتويجه إمبراطورا، إلا أنه رفض ذلك متعللاً بأنه أجبر علي ذلك، وأنه ليس إلا حاميا لشرعية الطفل الوريث يوحنا باليولوجوس. فهو يحاول أن يبرر موقفه علي أن صراعه منصب مع المثلث المسيطر علي الأوضاع في القسطنطينية وليس مع الصبي ابن التاسعة. والباحث يري أن تصرف كانتاكوزينوس لم يكن زهداً منه، بقدر ما كان يحمله من رؤية مستقبلية لكسب ود وتعاطف سكان العاصمة في حالة ما شاءت الأقدار وأصبح على مشارفها مستقبلاً[١٨].

اعتبر منافسي كانتاكوزينوس في القسطنطينية أنه بفعلته هذه أصبح انفصاليا ومدعي للعرش، ومن ثم أصدر البطريرك كاليكاس من ناحيته قرار بالحرمان ضده، وقام أيضا بتتويج الصبي إمبراطورا باسم يوحنا الخامس باليولوجوس John V Paliologos (١٣٤٧–١٣٩١م). وبذلك زادت الأزمة تفاقما، وتصاعدت بشكل ينذر بصدام شديد تكرر معه شبح الحرب الأهلية الأولى[١٩].

---

١٨ Kantakouzenos, *Histoirae*, Vol. II, 165- 169 .

١٩ Kantakouzenos, *Histoirae*, Vol. II, 12.

على أية حال أدى هذا التنافس الحميم إلى تفجير الأوضـــاع في مناطق عدة، كان أهمها علي الإطلاق تسالونيكا المدينة الثانية في الإمبراطورية من حيث الأهميـــة السياســـية والاقتصادية. حيث شهدت أعمال عنف وصراعي طبقي زاد من سوء الأحـــوال السياســـية والاقتصادية، إلى جانب اتساع حالة التفسخ الاجتماعي. فقد قامت مجموعـــة تحمـــل فكـــراً ايدولوجيا –مشابها للتيار اليساري الاشتراكي في عصرنا الحالي– عرفوا باســـم "النشـــطاء المتحمسين" Zealots بإعلان الثورة والاستقلال الذاتي في عام ١٣٤٢م، وذلك عندما شعروا بتحركات يوحنا صوب تسالونيكا للاستيلاء عليها لتوسيع قاعدة نفوذه في مواجهة منافســـيه، خاصة وأن بها بعض مناصري جماعة الزهد الصامت أتباعه المخلصين. وقاموا بتشـــكيل مجلس حكم ذاتي، وقاموا بوضع سياسة اقتصادية تقوم علـــى مصـــادرة أمـــلاك وثـــروات الارستقراطيين من كبار ملاك الأراضي وأرباب الصناعات، إلى جانب مصـــادرة ثـــروات الأديرة والكنائس، وهو ما كان له تأثير شديد على مجرى الأحداث فيما بعـــد[٢٠]. والباحـــث يرى أن الأوصياء على العرش في القسطنطينية لم يكونوا بعيدين عن الأحداث الدائرة داخل تسالونيكا، حيث إن الأحداث كانت تدار داخل المدينة من خلال ابن أبوكاوكاس، ومجموعـــة من أبناء أسرة باليولوج.

فقد اعتبر رجال الدين والرهبان أن مصادرة ثروات الكنائس والأديرة يعد تجـــاوزا غير منطقيا ولا يمكن قبوله بأي شكل من الأشكال، مما أصابهم بحالة من الغضب، جعلتهم يتنكرون لهؤلاء الثوار وينفضوا عن دعمهم بعدما كانوا من أشد المتحمسين إليهم في البداية. ومن ثم نقلوا وجهتهم وأعلنوا تأييدهم ليوحنا كانتاكوزينوس. وبالتالي أصبح هناك حالة مـــن التزاوج بين رأس المال والدين والسياسة، كانت سببا في بعث الأمل من جديد في نفس يوحنا كانتاكوزينوس، مما جعله يعيد تنظيم صفوفه لمواجهة خصومه.

---

[٢٠] رغم انتهاء الحرب الأهلية فيما بعد عام ١٣٤٧م، إلا أن الثوار استمروا في حركتهم بعد ذلك لفترة قصيرة ورفضوا التعامل مع يوحنا. كما منعوا جريجوري بالاماس من تأدية عمله كمطران لكنيسة تسالونيكا رغم تعينه في هذا المنصب عام ١٣٥٠م. وكادت أن تسقط في يد الصرب لولا براعة أحد القواد ويدعي الكسيوس ميتوخيتس Alexios Metochites، الذي تمكن من استرداد المدينـــة من الثوار وتمكين بالاماس من مهام وظيفته، ولمزيد من المعلومات عن تلك الثورة، انظر :

Kantakouzenos, *Histoirae*, Vol. II, 234 – 235; Cf. Origne, *Giovnna di Savoia*, 130-131; Nicol, D., *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relation*, Cambridge, 1992, 262.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه التطورات إصابة الإمبراطورة بحالة من القلق بعدما زاد أتباع كانتاكوزينوس بهذه الصورة وبخاصة رجال الدين لما لهم من تأثير عظيم علي الرأي العام الواقع بطبيعته تحت تأثير الدين، ففكرت في اتخاذ عدة خطوات تنم عن عدم خبرتها السياسية. فقد قامت في البداية باستدعاء الزعيم الروحي لجماعة الزهد الصامت وأكبر المؤيدين لكانتاكوزينوس جريجوري بالاماس من التفاوض معه ومحاولة إقناعه بالتخلي عن دعم المنافس. فعرضت عليه فك القيود المفروضة علي الجماعة وإطلاق حريتهم الدينية، إلى جانب إلغاء قرار الحرمان الصادر بشأنه. ولكنه رفض هذه العرض بشدة، وأعلن تمسكه بصديقه يوحنا كانتاكوزينوس حتي النهاية. وبطبيعة الحال مثل هذا الرد صدمة شديدة للإمبراطورة، مما جعلها تتهور وتصدر قرار بالقبض علي بالاماس وإيداعه بالسجن عام ١٣٤٥م، وكان لهذا التصرف رد فعل عكسي علي الشارع في القسطنطينية، حيث ساعد علي زيادة الداعمين لكانتاكوزينوس. وبعد عجزها في الداخل قامت بعرض وضع نفسها والكنيسة تحت سيطرة البابوية، وأرسلت برسائل لطلب العون من جمهوريتي جنوة والبندقية[٢١].

من ناحية أخري كانت الأمور تسير في صالح يوحنا كانتاكوزينوس إلى حد ما، فقد شهد عام ١٣٤٥م تطورات امة ساعدت علي ترجيح كفة يوحنا كانتاكوزينوس علي حساب منافسيه. ففي شهر أبريل من نفس العام انضمت عدة مدن في جنوب مقدونيا Macedonia إلى جنب تساليا Thessaly إلى كانتاكوزينوس واعترفوا به كإمبراطور. كما شهد شهر يونيو من نفس العام أيضا مقتل أحد أضلاع هذا الصراع الكسيوس أبوكاوكس، والذي مثل ضربة قاصمة للإمبراطورة والبطريرك، لما كان دور فعال في تحريك سكان العاصمة ضد الارستقراطيين، وتكوين جبهة من المثقفين ورجال المناهضين للهدوئيين، إلى تحريضه أيضا للثوار في تسالونيكا لصد أي محاولة من شأنها وجود أي دور لكانتاكوزينوس أو أي من أتباعه داخل المدينة. وإزاء ذلك حاولت الإمبراطورة عبثا إرضاء جماعة الزهد الصامت بعروض اللحظات أو الفرص الأخيرة. حيث عرضت عليهم إطلاق صراح جريجوري بالاماس تكريمه بالشكل اللائق، إلى جانب إقصاء غريم يوحنا كاليكاس من منصب البطريرك، لكنهم أجابوعليها بالرفض، وذلك بعد أن شعروا بتحسن وضع حليفهم يوحنا كانتاكوزينوس[٢٢].

---

٢١ Nicol, *The Last Centuries,* 198- 199.

٢٢ Kantakouzenos, *Histoirae*, Vol. II, 541- 545; Cf. Nicol, D., *The Reluctant Emperor : A Biography of John Cantacuzene, Byzantine Empire*, Cambridge, 2002 ,79; Origone, *Op. Cit.*,131.

ورغم أن كانتاكوزينوس أصبح في موقف يؤهله لمواجهة حاسمة مع خصومه، وذلك بعدما توفر له الدعم السياسي بما انضم إليه من الأتباع من مناطق عدة في تراقيا وتساليا ومقدونيا، والدعم الاقتصادي من خلال دعم أصحاب الطبقة الارستقراطية له، هذا بالإضافة إلى الدعم المعنوي من قبل جماعة الزهد الصامت، وأخيرا من انضم إليه من رجال الدين والرهبان بعد قرارات الثوار في تسالونيكا والخاصة بمصادرة أملاكهم وأموالهم. إلا أن الدعم الأقوى الذي أخذ حمله بقوة إلى أسوار القسطنطينية وتخطيها إلى الداخل، كان الدعم المقدم له من السلطان العثماني اورخان Urchan، والذي جعله يقدم تنازلات صعبة في مقابل ذلك. فقد وافق على عقد مصاهرة معه بالزواج من ابنته ثيودورا، المخالفة له في الدين والسن والعرق[٢٣].

وقد تمكن يوحنا من حسم هذا الصراع وإنهاء الحرب الأهلية مع صبيحة اليوم الثالث من شهر فبراير عام ١٣٤٧م، حيث فتحت له أبواب القسطنطينية دون مقاومة تذكر، ومن المحتمل أن ذلك تم بمساعدة بعض الموالين له داخل العاصمة. ونفس الشئ حدث أثناء دخوله للقصر الإمبراطوري، حيث لم تبد الإمبراطورة آنا سافوي أية مقاومة والتزمت الصمت. وبعد مناقشة للأوضاع بينهما، تم عقد اتفاق ثنائي بين الإمبراطورة ويوحنا كانتاكوزينوس في الثامن من فبراير ١٣٤٧م. تم خلال هذا الاتفاق إزالة الخصومة القائمة بينهما، والاعتراف بيوحنا كانتاكوزينوس إمبراطورا مشاركا في الحكم إلى جانب الإمبراطور الصغير. وتم تتويج هذا الاتفاق بعقد مصاهرة بين الأسرتين، بزواج يوحنا الخامس باليولوجوس من ثيودورا ابنة يوحنا كانتاكوزينوس التي لم تتعد الثالثة عشر من عمرها، وتمت مراسم الزواج في الثامن والعشرين من مايو عام ١٣٤٧م[٢٤].

علي أية حال كان انتصار يوحنا كانتاكوزينوس في نفس الوقت انتصاراً لجماعة الزهد الصامت، وبات من حق تلك الجماعة جني ثمار هذا الانتصار. وكانت البداية مع

---

[٢٣] لجأ يوحنا إلى أورخان بعد موت حليفه الأول عمر أمير آدين Aydin، وقد سمح هذا التحالف لأورخان من انتزاع الاقليم الساحلي للبحر الأسود من الامبراطورة آنا سافوي، إلى جانب

فتح الطريق أيضا أمام الصرب للاستيلاء علي مساحات من الاراضي البيزنطية، ولمزيد من المعلومات انظر:
Kantakouzenus, *Histoirae*, Vol. II, 20-25; Doukas, *Op. Cit*., 70-71; Cf. Tazcan, B., *The Second Ottoman Empire: Political and Social Transformation in the Early Modern World*, Cambridge, 2010, 87; Nicol, D., *The End of Byzantine Empire*, London, 1979, 38 -39, Idem, *Byzantium and Venice,* 262.

[٢٤] *The History of John Cantacuzenus* (Book IV), trans. by. Timthy, M., Ph.D., The Catholic University of America, 1975, 147-150.

إطلاق صراح جريجوري بالاماس وإلغاء قرار الحرمان الصادر ضده من قبل. وتلى ذلك قرار شديد الأهمية، حيث تم إعفاء البطريرك يوحنا الرابع عشر كاليكاس من منصبه، وكان ذلك تمهيدا لمرحلة جديدة أفسحت الطريق أمام أصحاب مدرسة السكينة الروحية المعروفة بالهدوئية. وطرح في البداية اسم جريجوري بالاماس لتولي هذا المنصب خلفا ليوحنا كاليكاس، علي اعتبار أنه كافح كفاحاً مريراً ضد معارضي الهدوئية، إلى جانب أنه لم يغير من قيمه ومبادئه وفضل الاستمرار في محبسه على أن يتخلى عن مساندته وتأييده ليوحنا كانتاكوزينوس. والمفاجأة الصادمة كانت في المعارضة التي أبداها عدد من الرهبان ورجال الكنيسة ضد هذا الترشيح، على اعتبار أن الكثير منهم تعرض لمثل ما تعرض له بالاماس. وفي النهاية وقع الاختيار على تعيين الأسقف ايسدور Isodore أسقف مونيمفازيا Monmavasia والصديق المقرب لجريجوري بالاماس بطريركا لكنيسة القسطنطينية(١٣٤٧-١٣٥٠م). وكان للبطريرك ايسدور دورا هاما في تثبيت دعائم العقيدة الجديدة، حيث قام بتعيين العديد من الأساقفة التابعين لجماعة الزهد الصامت في مختلف الكنائس، وكان من ضمنهم جريجوري بالاماس الذي عينه مطراناً لكنيسة تسالونيكا تفضيلا له عن بقية الأساقفة لما لها من مكانة طيبة في الإمبراطورية بعد العاصمة القسطنطينية. وقد ساعدت هذه التعيينات علي انتشار وتوغل العقيدة الجديدة في شتى أرجاء المجتمع[٢٥].

وبرغم تلك الجهود المبذولة لترسيخ تلك العقيدة، فإن ذلك لم يحل دون ارتفاع بعض الأصوات المعارضة لها، والتي تبناها خلال ذلك المؤرخ والعالم المشهور نيقفوروس جريجوراس، والذي كان يوما ما خصماً عنيداً للراهب بارلام الكالابري؛ إلا أنه تحول وبدون أسباب معروفة لمعارضة أفكار وطقوس جماعة الزهد الصامت، وانضم إليه العديد من رجال الدين وبخاصة البطريرك السابق يوحنا كاليكاس، الذي حاول إثارة الفتن والعودة لنقطة الصفر مرة أخرى، ولكن من خلال شخصيات أخرى. وأصبحت الصورة تتحدث وكأننا أمام موجة جديدة من الشقاق والجدل الديني. فنقفوروس الذي كان ملما بعلم الفلك، كان يرى أن الإنسان بهذا العلم الدنيوي يستطيع التقرب من الخالق والتعرف عليه، وليس بالأساليب التي يتبعها جماعة الزهد الصامت. اعتبر بالاماس النسكي الباطني، والذي يقوم منهجه على التشكك في أي نوع من أنواع الحكمة البشرية في التعرف على الرب، أن هذه الأقوال مجافية للحقيقة وهجوم غير مبرر على عقيدته، وأضاف بالاماس أن اللاهوت حق أساسي للراهب، ولا

---

٢٥ *The History of John Cantacuzenus*, 162-163, 235.

يتعلمه من خلال الكتب "الحكمة الخارجية"، ولكن من خلال الوحي والإلهام من النور غير المخلوق" الحكمة الداخلية"[٢٦].

وأصبح حتميا عقد مجمع كنسي جديد لعرض الأمر للنقاش، واتخاذ قرار بخصوصه، وتحدد له موعدا بالفعل في السابع والعشرين من مايو ١٣٥١م. وقد ترأس هذا المجمع الإمبراطور يوحنا كانتاكوزينوس، وشمل الحضور البطريرك المؤيد للهدوئية، وعدد من الرهبان والمطارنة والأساقفة ممن سبق تعيينهم عن طريق البطريرك ايسدور، إلى جانب عدد من أعضاء مجلس السناتو. وتشير المصادر إلى مدى سيطرة أصحاب مدرسة السكينة الروحية، فرغم قلة عدد الأساقفة الحاضرين والمنتمين لتلك المدرسة، فقد كان صوتهم مدويا ومؤثرا. فبالرغم من قلة عددهم قياسا ببقية الحاضرين، فقد بدوا وكأنهم يمثلون صوت وهيئة كل الكنائس البيزنطية، وتمسكوا بالتزام كل المنتمين للعقيدة الأرثوذكسية الإلتزام بتعاليم جريجوري بالاماس. وبقراءة الموقف الراهن يفهم أن قرارات هذا المجمع كانت معروفة مسبقا. وبالفعل فقد انتهي المجمع إلى إصدار الجواب الشافي والنهائي عن موضوع جوهر الإله وقواه، وثبت بشكل نهائي تعاليم بالاماس القويمة. كما أدان في نفس الوقت نيقفوروس جريجوراس وكل معارضي العقيدة الجديدة، وتم إجباره على الإقامة في دير خورا Chora بالقسطنطينية، وبذلك ثبت بالاماس موقعه السامي في الكنيسة الأرثوذكسية[٢٧].

وقد حاول نيقفوروس جريجوراس إثناء الإمبراطور يوحنا عن اتخاذ هذا القرار، وذكره بصداقته القديمة له، ولكن ذهبت محاولته هباء، فقوة التيار كانت أقوى من أن يتراجع يوحنا عن قرارات المجمع الاخير.

وهكذا أسدل الستار عن قضية شغلت الإمبراطورية لوقت طويل، وأثرت على الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية بها، وانتهت بانتصار أصحاب مدرسة السكينة الروحية من جماعة الزهد الصامت، وأصبحت الهدوئية بفضل مجهوداتهم، ونضالهم جزءً من العقيدة الأرثوذكسية تماما.

وقد أخذت الهدوئية فيما بعد في الانتشار، حتي انتقلت بفكرها ومنهجها إلى خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية، حيث انتقلت إلى كنائس الصرب والبلغار وروسيا، كما أصبح لها مريدين مشهورين ينشرون شروحها في مختلف الأماكن، مثل الأسقف نيقولاس

---

٢٦ *Nikephoros Gregoras*, *Op. Cit*., 102- 107; Cf. Nicol, *The Last Centuries*, 51- 53.

٢٧ *Philotheos (patriarch) Encomium*, Cols. 621-630.

كاباسيلاس Nicholas Cabasilas، وسـيمون رئـيس أسـاقفة تسـالونيك Symeon of Thessalonica، ومارك يوجينيكوس Mark Eugnikos.